التعدّديّة الدينيّة وعلم لاهوت الأديان

الأب عزيز الحلّاق اليسوعيّ (٥)

مقدّمة

تُعتبر التعدّديّة من سمات عصرنا، إذ ألغت وسائلُ الاتّصال الحديثة المسافات وقرّبت البعيد وربطت القارّات بعضها ببعض بشكل لم يسبق له مثيل. كما أنّ الهجرة وانتقال الأشخاص من بلد إلى آخر أدّت إلى نشوء مجتمعات تتلاقى فيها الثقافات والأديان والأعراق المختلفة. إنّ مدن العالم الكبرى أصبحت ملتقًى يجمع البشريّة بمختلف مشاربها وألوانها وأعراقها. هذا الواقع الجديد يفرض على الناس العيش المشترك على ما بينهم من فروق وتغاير، ويضعهم أمام تحدٍّ كبير يتمثّل في كيفيّة التعامل مع الآخر المغاير ثقافيًّا ودينيًّا: هل ينبغي النظر إليه على أنّه تهديد يجب الحماية منه والتحصّن ضدّه؟ أم هو فرصة ذهبيّة للتلاقي والتعارف والتعاون تمنع الانغلاق على الذات والانزواء في الخصوصيّة.

إنّ وجود الآخر المغاير في آرائه ومعتقداته يحرِّر من الادّعاء الخادع بامتلاك الحقيقة، ويذكِّر بأنّ لا أحد يمكنه التبجّح بحيازة كلّيّة الحقيقة، فلا تلاقيَ حقيقيًّا مع الآخر دون الإقرار بإمكانيّة الاغتناء منه، وهكذا تتحرّر الحقيقة من كلّ نزعة استملاك لتصبح مسيرة مشتركة تشدّ نحو الأمام بقدر ما تنمو العلاقة ويتطوّر الحوار مع الآخر في محاولة لاكتشافه على

---

(٥) باحث في الشؤون اللاهوتيّة – حلب.

الرغم ممّا يوجد من اختلاف معه.

إنّ كلّ مجتمع قائم على حماية نفسه من الآخر والتحصّن ضدّه يحكم على نفسه بالتقوقع والانغلاق والتقهقر. إنّ تاريخ الحضارات يبيّن أنّ نشوءها وتطوّرها يعود إلى الشرارة التي أحدثتها صدمة اللقاء مع الآخر، ولنا في الحضارة العربيّة والإسلاميّة أقرب مثال على ذلك.

لكن ممّا لا شكّ فيه أنّ التعدّديّة تطرح على المجتمعات قضايا ومسائل في غاية الأهمّيّة، إذ قد تكون حافزًا لها على التقدّم والتطوّر والتجديد، كما قد تصبح في بعض الحالات مصدرًا للتناحر والاقتتال. لذلك يتطلّب التعامل معها منتهى الوعي والانتباه وبالأخصّ عند التعامل مع ظاهرة التعدّديّة الدينيّة، التي أصبحت واقعاً يفرض ذاته حاثًّا الفكر الدينيّ واللاهوتيّ على صياغة مرتكزاته في ضوء هذه الحقيقة وليس بتجاهلها، وهذا يتطلّب تغليب المنطق الحواريّ ليصبح بعدًا أساسيًّا في كلّ تفكير لاهوتيّ. فالحوار بين الأديان أصبح ضرورة ملحّة لعالم اليوم، وقضيّة السلام والعدل مرتبطة إلى حدّ بعيد بالحوار والتعاون بين الأديان، ويكفي أن نذكر على سبيل المثال تلك الصلاة من أجل السلام التي أقيمت في أسّيزي منذ سنوات قليلة والتي شارك فيها ممثّلون عن الأديان الكبرى في العالم حيث صلّى الحاضرون معًا ولكن كلّ حسب إيمانه ومعتقده. والجدير بالذكر أنّ لقاء أسّيزي كان لقاءًا صامتًا، ولكنّ هذا الحوار الصامت كان أبلغ من كلّ الخطب لأنّه جمع المؤمنين معًا في حضرة الله. ممّا لا شكّ فيه أنّ الحوار بين الأديان له عدّة مستويات، ولكن يجب أن يقود في نهاية المطاف إلى طرح التساؤل عن المصير الإنسانيّ الذي يشغل جوهر رسالة كلّ دين، والذي يعبّر عنه الفكر اللاهوتيّ المسيحيّ بقضيّة الخلاص، أي هل هنالك خلاص خارج حدود المسيحيّة، وهل تقود الأديانُ الأخرى أتباعها نحو الخلاص؟

سيقتصر مجال بحثنا على معالجة هذه المسألة في بعدها اللاهوتيّ، وذلك بتقديم عرض سريع لمختلف الآراء المتداولة في الفكر اللاهوتيّ

المسيحيّ والتي تتناول دور الأديان غير المسيحيّة في الخلاص، كما يَرصُد التطوّرات التي طرأت على هذا الفكر في العقود الأخيرة.

إنّ ظاهرة التعدّديّة الثقافيّة والدينيّة والعلاقة مع الأديان الأخرى ودورها في الخلاص ليست بجديدة على اللاهوت المسيحيّ، فقد كان اللقاء بين الكنيسة الناشئة والثقافة اليونانيّة أوّل تحدٍّ للفكر المسيحيّ وأوّل محاولة انثقاف قام بها اللاهوت المسيحيّ، إذ كان عليه أن يتلقّى معطيات الفلسفة اليونانيّة ويطوّعها لتصبح ناقلةً للوحي المسيحيّ، ولم يقتصر التعامل مع الفلسفة اليونانيّة على أنّها مجرّد أداة للفكر اللاهوتيّ، بل وجد الآباء فيها حكمة ودورًا لاهوتيًّا يحقّق اللهُ من خلالها خلاص الوثنيّين الذين لم تسنح لهم الظروف بمعرفة البشارة الإنجيليّة.

إنّ قضيّة خلاص الذين خارج الكنيسة المرئيّة شغلت بال اللاهوتيّين الأوائل، وهي تبقى الإشكاليّة الرئيسة التي تحدّد مكانة الأديان الأخرى في الفكر اللاهوتيّ المسيحيّ المعاصر. فالمسيحيّة لا تدّعي احتكار مشروع الله الخلاصيّ الذي يشمل جميع البشر، ولكن يبقى السؤال عن الكيفيّة التي يصل بها فعل الخلاص إلى الذين لم يعرفوا المسيح، «الكلمة» المتجسّد. فمنذ البداية رأى الآباء، أمثال يُوسْتِينُس وأوريجانيس وغيرهما، في الفلسفة اليونانيّة وسيلة يعمل الله من خلالها. فالكلمة الذي كان في البدء هو حاضر في البشريّة دائمًا وأبدًا حتّى سمّوا هذا الحضور «بذار الكلمة» العامل باستمرار على تجلّي الحقيقة في الضمير البشريّ. لقد عبّر الآباء الأوّلون بلغة عصرهم وبوساطة مفهوم «بذار الكلمة» عن حضور الله الخلاصيّ الفاعل في الأمم الوثنيّة بصورة خفيّة حتّى قبل تجسّد الكلمة وظهوره للبشريّة بصورة علنيّة.

ولكن مع انتشار المسيحيّة وهيمنتها على العالم القديم ظهرت مقولة أخرى تقول: «لا خلاص خارج الكنيسة»، وعلى الرغم من التضيّق الذي أحدثته هذه المقولة، انشغل علم اللاهوت لفترة طويلة بتفسيرها كي لا يوضع حدٌّ لإرادة الله الخلاصيّة. وممّا يجدر ذكره أنّ ذهنيّة القرون

الوسطى كانت تقسّم المجتمعات والناس على أساس دينيّ، وكان كلّ يدّعي أنّ إيمانه هو الإيمان الصحيح ودينه هو الدين الحقّ بينما يقبع الآخرون في ضلال مبين. لذا نجد في نتاج تلك الفترة الفكريّ الكثير من المؤلّفات التي تقدّم الأدلّة والبراهين على صحّة دين مؤلّفها وتنزع عن دين الآخر أيّ مصداقيّة. لذلك كان الآخر محكومًا عليه بالارتداد أو الكفر والزوال.

ولكن مع إطلالة القرن السادس عشر انفتح الأفق على قارّات وأقوام لم تكن معروفة من قبل، ممّا طرح مجدّدًا وبإلحاح على الفكر اللاهوتيّ قضيّة التعدّديّة الدينيّة في العالم ومسألة خلاص غير المسيحيّين، كما أنّ احتكاك المرسلين بمجتمعات لها تراث دينيّ عريق جعلهم يكتشفون قيمًا روحيّة لا يرقى إليها الشكّ. ولنا في رسول الصين ريتشي خير مثال، إذ أصبح يُضرَب به المثل كنموذج للانفتاح والحوار مع الأديان الأخرى. هذا الوعي لتنوّع البشريّة الدينيّ والثقافيّ يجعل من الحوار ضرورة ملحّة لعالم اليوم لأنّ البديل سيكون الاقتتال والنزاعات المدمّرة.

لكنّ العقبة الكأداء التي تعطّل كلّ حوار هو ادّعاء احتكار الحقيقة الإلهيّة وتكفير الآخرين، إذ من اليسير على الإنسان أن يدّعي امتلاك كلّيّة الحقيقة متصّبًا ذاته أميرًا عليها، وكابتًا التساؤلات التي يثيرها وجود الآخر الذي يخالفه الرأي أو الدين، لأنّ ذلك يعطيه طمأنينة نفسيّة وتفوّقًا وهميًّا على الآخر. ولكنّ قبول التساؤلات الآتية من الآخر معناه التحرّر من الاكتفاء الذاتيّ والاعتراف بوجود سرّ يفوق الإدراك والفهم الإنسانيّ، أي أنّ الحقيقة ليست ملكيّة خاصّة تفصل البشر بعضهم عن بعض، بل هي نداء يدعو كلّ إنسان إلى السير نحوها برفقة الآخرين والحوار معهم لأنّ سرّ الله فوق الجميع. لكنّ هذا الحوار يجب أن يقوم على مقولتين اثنتين أولاهما احترام الآخر ومعاملته على قدم المساواة وثانيهما أنّ الحوار لا يلغي الهويّة الخاصّة أو ينتقص منها، فالاعتراف بالحقيقة التي يعيشها الآخر لا يلغي شيئًا من حقيقتي، لأنّ الحقيقة النهائيّة ملك لله وحده ولا أحد يستطيع القول بأنّها ملك له وحده دون غيره.

هذا الوعي المتزايد لحضور الآخر ودوره الإيجابيّ في مسيرة الحقيقة معناه الاعتراف بسرّ الله اللامحدود، وعندما يصبح الحوار مع الآخر شرطًا لكلّ مسيرة إيمانيّة صحيحة. لهذا أخذ الحوار مع الأديان الأخرى يشغل حيّزًا متزايدًا في علم اللاهوت المسيحيّ إذ ظهر منذ بداية هذا القرن ما يعرف بلاهوت الأديان، وأخذ هذا الاهتمام صورة جليّة في مداولات المجمع الفاتيكانيّ الثاني الذي أحدث نقلة نوعيّة في علاقة المسيحيّة بالأديان الأخرى، إذ أفرد لها في مقرّراته حيّزًا لا يستهان به، فكان ذلك انطلاقة جديدة حثّت الكثير من اللاهوتيّين على إعادة صياغة العلاقة بالأديان الأخرى من منطلق إيجابيّ ووفق نظرة متجدّدة، بعد أن تجاهلتها قرونًا طويلة. فما هي التطوّرات والمراحل المختلفة التي يمكن رصدها في لاهوت الأديان؟

إشكاليّة لاهوت الأديان

لقد بدأت ملامح هذا اللاهوت تتّضح منذ مطلع القرن العشرين، ومن روّاده لاهوتيّون كبار أمثال كارل بارت Karl Barth وكارل راهنر Karl Rahner وهانس كونغ Hans Küng وجان دانييلو Jean Daniélou وهنري دي لُوباك Henri de Lubac وجاك دُوپوي Jacques Dupuis وكلود جِفْرِه Claude Geffré وغيرهم. ولكن قبل استعراض أفكار هؤلاء لا بدّ من إيضاح الأسس والمنطلقات التي يقوم عليها لاهوت الأديان وتحديد الإطار الفكريّ الذي يدور فيه.

إنّ لاهوت الأديان بالتعريف هو فرع من علم اللاهوت يدرس القضايا والتساؤلات التي تثيرها وتطرحها التعدّديّة الدينيّة في إطارها التاريخيّ على اللاهوت المسيحيّ، محاولًا معالجتها والإجابة عنها في ضوء مبدأ شموليّة الخلاص.

إنّ لاهوت الأديان في الفكر المسيحيّ يستند إلى مقولتين اثنتين يجب التوفيق بينهما: المقولة الأولى هي تأكيد إرادة الله الخلاصيّة التي

تشمل كلّ البشر والتي تجلّت بتجسّد الكلمة في يسوع المسيح بكونه وسيطًا أوحد بين الله والإنسان، «فإنّه يريد أن يخلّص جميع الناس ويبلغوا إلى معرفة الحقّ، لأنّ الله واحد، والوسيط بين الله والناس واحد، وهو إنسان، أي المسيح يسوع الذي جاد بنفسه فدىً لجميع الناس» (طيمو ٢/ ٤-٦). والمقولة الثانية تقول بأنّ الله، بداعي إرادته الخلاصيّة الشاملة، يستعمل طرقًا أخرى نجهلها كي يحقّق الخلاص للبشر في أوضاعهم الخاصّة. صحيح أنّ يسوع هو المخلّص الأوحد، ولكن كلّ إنسان يستطيع نيل الخلاص هذا مهما كان وضعه وانتماؤه الدينيّ أو الثقافيّ. إنّ الله يدعو كلّ إنسان إلى الخلاص ضمن ظروفه الخاصّة، والاستجابة لتلك الدعوة تأخذ طرقًا مختلفة، إذ غرس الله في الأديان والشعوب حقيقته وإرادته، اللتين أودعهما الكنيسة. لقد عبّر المجمع الفاتيكانيّ الثاني عن هذا الموقف عندما قال: «فالكنيسة الكاثوليكيّة لا تنبذ شيئًا ممّا هو حقّ ومقدّس في هذه الديانات، بل تنظر بعين الاحترام الصادق إلى تلك الطرق، طرق المسلك والحياة، وإلى تلك القواعد والتعاليم التي غالبًا ما تحمل شعاعًا من تلك الحقيقة التي تنير كلّ الناس بالرغم من أنّها تختلف في كثير من النقاط عن تلك التي تتمسّك بها هي نفسها وتعرضها» (تصريح المجمع عن الأديان الأخرى، رقم ٢).

إنّ مهمّة اللاهوتيّ الصعبة هي التوفيق بين هاتين المقولتين في جدليّة تقرّ من جهة بالتعدّديّة الدينيّة كواقع إيجابيّ وطريق خلاص للكثير من البشر ذوي الإرادة الطيّبة، ومن جهة أخرى التأكيد على خاصّيّة المسيحيّة، التي تتمثّل بتجلّي الله المتسامي وغير المحدود في إنسانيّة يسوع الناصريّ. هذه الخاصّيّة بلغت قمّة تجلّيها في لغة الصليب التي تعبّر - بصورة لا نجدها في الأديان الأخرى - عن قدرة الله وحكمته. لنستعرض الآن مراحل التطوّر المختلفة التي مرّ بها لاهوت الأديان متوقّفين عند آراء بعض روّاده الكبار.

لاهوت الأديان في المدرسة الألمانيّة

إنّ أوّل محاولة تجدر الإشارة إليها في هذا المجال هي المحاضرة التي ألقاها العامَ ١٩٠٢ اللاهوتيّ البروتستانتيّ أرنست ترولتش Ernst Troeltsch تحت عنوان «المسيحيّة في صفاتها الكونيّة وتاريخ الأديان» وقد أحدثت في حينها دويًّا هائلًا. وتعتبر المحاضرة هذه أولى المحاولات الجادّة في لاهوت الأديان، إذ اعتمدت البعد التاريخيّ مفتاحًا لقراءة الظاهرة الدينيّة وبالتالي أعطت هذه الظاهرة صفة النسبيّة. ينطلق ترولتش من رؤية تاريخيّة للواقع الإنسانيّ، فالكائن الإنسانيّ هو بالدرجة الأولى كائن تاريخيّ، كما أنّ وعي الإنسان ومعرفته ذاته خاضعان للصيرورة التاريخيّة، فليس هنالك شيء أبديّ أو ثابت بالمطلق، كلّ شيء متغيّر ونسبيّ، وينعكس ذلك على علاقة المسيحيّة - التي تقول عن نفسها إنّها ديانة الأبديّ والمطلق - بالأديان الأخرى.

إنّ نظرة ترولتش التاريخيّة ترفض أن تنسب المسيحيّة إلى نفسها صفة الأبديّة والإطلاق التي تعود إلى الله، كما ترفض ادّعاء هيغل أنّ المسيحيّة تمثّل قمّة التطوّر الدينيّ لدى البشريّة. فالأديان الأخرى، وفق المنظور التاريخيّ، لا تقلّ في نظره شأنًا عن المسيحيّة كمكان لتجلّي المطلق. إنّ العلاقة بين الله الواحد والتعدّديّة الدينيّة تتوضّح في جدليّة الوحدة والتفارق، فالحياة الإلهيّة تفصح عن ذاتها في الواقع التاريخيّ عبر مظاهر وتجلّيات عديدة، ولا يمكن أيّة ظاهرة تاريخيّة خاصّة أن تدّعيَ لذاتها صفة الإطلاق، لأنّ هذا يناقض طبيعة الله الشاملة والمتسامية فوق الجميع. لذلك لا يحقّ لأيّة ديانة كانت أن تعتبر نفسها مطلقة، غير خاضعة لقانون النسبيّة التاريخيّة، وعليه يجب أن تتخلّى المسيحيّة عن قولها بأنّها تمثّل الحقيقة الأبديّة الشاغلة كلّيّة التاريخ. لكن ماذا يبقى من الديانة إذا أصبحت مجرّد تعبير عن مرحلة معيّنة من الوحي الإلهيّ ضمن إطار وزمان محدّدين؟ هل النسبيّة التاريخيّة مصير كلّ ديانة؟

إنّ نقد ترولتش الجذريّ لادّعاء المسيحيّة صفةَ الشموليّة المطلقة

باعتبارها الديانة الحقيقيّة، يقابله تأكيد لها على المستوى الفرديّ الشخصيّ، فكون المسيحيّة اختبار شخصيّ داخليّ يدور في أعماق الضمير، يجعلها تفلت من المقاييس الموضوعيّة التاريخيّة. وعندما يقارن ترولتش بين الأديان، يعتبر المسيحيّة من أرقى أنواع الحياة الدينيّة المعروفة ويقرّ للمسيحيّة بشيء من المطلقيّة، ولكنّ هذه المطلقيّة لا تعني شيئًا آخر سوى المفاضلة على مستوى الاختبار الشخصيّ والتجربة الذاتيّة.

لكن بعد اثنين وعشرين عامًا يعيد ترولتش صياغة موقفه بصورة أوضح، مركّزًا هذه المرّة على الإطار الثقافيّ في كلّ ديانة، مقرًّا بشموليّة المسيحيّة في الفضاء الأوروبّيّ، إذ يصعب تصوّر أوروبّا من دون المسيحيّة فهي جزء لا ينفصل عن الثقافة الأوروبّيّة، لذلك هي الديانة المطلقة للإنسان الأوروبّيّ. وينطبق هذا المبدأ على باقي الثقافات التي لكلّ منها دياناتها المطلقة. أي إنّ المطلقيّة مسألة شخصيّة، ممّا يجعل المقارنة بين الأديان أمرًا مستحيلًا، وإن كان لا بدّ من المقارنة فهي بين الثقافات، وفي نهاية المطاف فإنّ الله وحده قادر أن يقارن بين الأديان لأنّه هو الذي سمح بتعدّديّتها.

أمّا المحاولة الثانية فتعود إلى اللاهوتيّ البروتستانتيّ الألمانيّ الكبير كارل بارت Karl Barth (١٨٨٦–١٩٦٨) وهي متأثّرة إلى حدّ بعيد بالأجواء السياسيّة السائدة في ألمانيا النازيّة بين الحربين العالميّتين، إذ رأى الكثير من الألمان البروتستانت في النازيّة تجسيدًا لتفوّقهم العرقيّ والدينيّ. ينتقد بارت هؤلاء البروتستانت، الذين سخّروا اللاهوت لخدمة الإديولوجيّة النازيّة جاعلين من البروتستانتيّة امتدادًا «للديانة الطبيعيّة الألمانيّة»، معتبرين المسيحيّة مجرّد نتاج بشريّ والوحيّ عبارة عن محصّلة للمعرفة التاريخيّة التي جمعها الإنسان عن ذاته وعن الله.

يهاجم بارت هذا الموقف معتبرًا إيّاه هرطقة وكارثة لاهوتيّة، فهو يجرّد الدين من كلّ بُعد ما ورائيّ، مبطلًا دور الوحي الإلهيّ، جاعلًا إيّاه

مجرّد نشاط بشريّ، حيث يصبح الإنسان مقياس كلّ شيء، ويرى بارت في كتابات أرنست ترولتش أنموذجًا لهذا التيّار اللاهوتيّ المنحرف المبتعد عن فهم الوحي المسيحيّ فهمًا صحيحًا. ويتلخّص موقف بارت على النحو التالي:

يعكس بارت مقولة ترولتش وينقد نسبيّته التاريخيّة، مؤكّدًا على أنّ الإيمان المسيحيّ لا يمكن اختزاله وتفسيره بأنتروبولوجيّة تاريخيّة، لأنّه وحي الله وكشفه عن ذاته بيسوع المسيح. فالأديان لا تقيَّم انطلاقًا من الإنسان والتاريخ، بل بالاستناد إلى نور الوحي الإلهيّ الذي تمّ بيسوع المسيح. ويميّز بارت بين الدين والوحي، فإذا كان الدين هو الجهد الإنسانيّ لمعرفة الله، فإنّ الوحي هو المعرفة التي يكشفها الله عن ذاته، لذلك يعتبر الوحي المقياس المُمَحِّص لأيّ دين. إنّ كلمة الدين مشحونة، في نظر بارت، بعناصر سلبيّة تدعو إلى الالتباس، باعتبار الدين جهدًا ونشاطًا إنسانيّين للوصول إلى الله وإدراكه، ويتمثّل هذا الخطر بأن يستعيض الإنسان عن صورة الله الحقيقيّة بصورة من صنعه وبنات أفكاره. ويرى بارت في كلّ ديانة أصنامًا تبعد عن الله الحقيقيّ.

لا يستثني بارت المسيحيّة من نقده الدين، لأنّ خطر الدين يهدّدها أيضًا. فوحي الله يمسّ البشر في إطار عالمهم الدينيّ الذي يشوّه الوحي مُسقِطًا عليه المفاهيم البشريّة. إنّ المسيحيّة كسائر الأديان ليست في مأمن من هذا التشويه، لذلك ينفي بارت وجود ديانة حقيقيّة. ولكن هل هنالك ديانة صحيحة؟

إنّ الإيمان الصحيح هو وليد النعمة التي يعطيها الله بيسوع المسيح، نعمة تُجدّد الوجود الإنسانيّ محوّلة إيّاه خلقًا جديدًا. بهذا المعنى لا توجد ديانة صحيحة لكون الديانة مجرّد نشاط وجهد بشريّين، ولأنّ الإنسان لا يستطيع أن يخلّص ذاته بذاته، فهو بحاجة إلى معونة خارجيّة. كذلك فإنّ الديانة الصحيحة هي ثمرة النعمة. وعلى هذا المنوال يعرّف بارت الدين الصحيح: إنّ الديانة المسيحيّة والكنائس تكون صحيحة بقدر ما تصبح

مكانًا لفعل النعمة. هذا هو المقياس الذي يجعل المسيحيّة تتفوّق على غيرها من الأديان. إنّ صحّة المسيحيّة لا تتأتّى إذن من مظاهر القوّة الخارجيّة ولا من الإنجازات الثقافيّة والفكريّة ولا حتّى من سموّ المبادئ الأخلاقيّة، ولكن من نعمة يسوع المسيح فقط كأساس للعلاقة بين الله والإنسان.

يعتبر بارت الفعل الإلهيّ بوساطة النعمة المصدرّ الأساسيّ لحقيقة الديانة. هذا الفعل يصحّح ويطهّر باستمرار الفعل البشريّ في الديانة. لهذا يجب أن يرافق النقد الذاتيّ على الدوام الوعي المسيحيّ، لأنّ الحدود الفاصلة بين الديانة الحقيقيّة والديانة الباطلة لا تمرّ بالضرورة بين المسيحيّة والأديان الأخرى بل في قلب المسيحيّة ذاتها. إنّ الوحي الإلهيّ هو الحَكم الفصل الذي يقيّم الإنجازات والمظاهر الدينيّة داخل الكنائس المسيحيّة، فالمسيحيّون أنفسهم هم أوّل مَن يشوّه ديانة النعمة بالتباهي الزائف بالذات والترفّع على غير المسيحيّين، بخطرسة ادّعائهم أنّهم مبرّرون والآخرين خاطئون.

ولكن بقدر ما يمنح هذا النقد الجذريّ للظاهرة الدينيّة قوّةً لموقف بارت فإنّه في الوقت نفسه نقطة ضعفه. إذ يصبح الغموض يكتنف كلّ شيء، غير تاركٍ للديانات الأخرى إلّا المظهر السلبيّ من الدين. لهذا ارتفعت أصوات داخل الصف البروتستانتيّ داعية إلى تصحيح هذا الموقف السلبيّ من الأديان الأخرى وعلى رأسها صوت الفيلسوف الكبير پول تيليتش Paul Tillich (١٨٨٦-١٩٦٥) الذي ألحّ على أهمّيّة اللقاء الصادق والحوار المنفتح مع الأديان الأخرى، فهو يعتبر أنّ خبرة لقاء الآخر هي مفتاح النقد الذاتيّ الصحيح في المسيحيّة، والطريق الذي لا يسلكه إلّا الأشخاص المتشابهون لا يقود إلى الحقيقة. إنّ غاية لقاء الآخر ليست تغييره أو العمل على ارتداده بل الحوار معه، وهذا يتطلّب من المسيحيّة ممارسة النقد الذاتيّ قبل أن تحكم على الأديان الأخرى وتقيّمها.

بعد هذا العرض السريع لمواقف بعض كبار اللاهوتيّين البروتستانت

منَ الأديان الأخرى، نستعرض تطوّرات لاهوت الأديان وتيّاراته المختلفة في الجانب الكاثوليكيّ.

اللاهوتيّون الكاثوليك والأديان الأخرى

يعتبر كارل راهنر Karl Rahner اليسوعيّ (١٩٠٤-١٩٨٤) من أبرز الذين ساهموا في تحقيق الانعطاف الحاسم في موقف الكنيسة الكاثوليكيّة من الأديان الأخرى، إذ اضطلع بدور مهمّ في بلورة وصياغة قرارات المجمع الفاتيكانيّ الثاني حول هذا الموضوع. ينطلق لاهوت راهنر من حيث ينتهي بارت، فهو يقرّ، استنادًا إلى تعاليم المجمع الفاتيكانيّ الثاني، بالقيم الأخلاقيّة والروحيّة والثقافيّة لدى الأديان الأخرى؛ بل يؤكّد أنّ الأديان غير المسيحيّة يمكن أن تكون طريق خلاص لأتباعها، وهذا معناه أنّ نعمة الله تعمل أيضًا خارج الكنيسة وأنّ غير المسيحيّين يمكن أن يخلصوا بطرقهم الخاصّة حتّى إذا لم يعرفوا المسيحيّة.

ممّا لا شكّ فيه أنّ المسيحيّة تبقى في نظر راهنر حاملة للحقيقة، ولكنّ هذه الحقيقة تنفذ خارج حدود الكنيسة، فالقضيّة في رأيه ليست عمليّة مفاضلة بين الأديان بل التعامل معها كحقيقة إنسانيّة واجتماعيّة لها تعاليمها ومعتقداتها. إنّ الأديان الأخرى فقدت من حيث المبدأ مبرّر وجودها بعد أن كشف الله عن ذاته بيسوع المسيح محقّقًا من خلاله الخلاص، فهل يستطيع غير المسيحيّ أن ينال هذا الخلاص بدون الانتماء إلى المسيحيّة؟ يقرّ راهنر أنّه من المستحيل حتّى من الناحية اللاهوتيّة الحكم على الملايين بالهلاك لمجرّد انتمائهم إلى ديانة غير المسيحيّة، لذلك لا يمكن أن ننفي عن الأديان الأخرى أيّ دور خلاصيّ بحجّة التشوّهات والنقائص التي ترافقها، فهي تبقى على الرغم من كلّ ذلك مكانًا لعمل النعمة الفائقة الطيبة التي يمنحها الله كلّ البشر بيسوع المسيح. إنّ نظريّة راهنر تبقى ضمن إطار مسيحيّة تعترف للأديان الأخرى بدور في مشروع الله الخلاصيّ لكلّ البشر. فهنالك وسائل مختلفة للخلاص، وطرق متعدّدة للاشتراك بوساطة سرّ المسيح.

إنّ منتقدي راهنر يعترضون على مثل هذه الرؤية قائلين: هل يمكن تقليص لاهوت الأديان الأخرى إلى قضيّة مكانة الأديان ودورها في مشروع الله الخلاصيّ؟ بالطبع لا، يجيب اللاهوتيّ اليسوعيّ هانس فالدِنْفِل Hans Waldenfel الأستاذ في جامعة بون الألمانيّة. ففي مقالة نشرت في حوليّة خصّصت بتكريم راهنر (١٩٨٤) حدّد رؤيته على النحو التالي: «إنّ الذي يسعى إلى الحوار مع ممثّلي الأديان الأخرى يجب أن لا يقصر وظيفة الأديان الأخرى على الدور الذي يمكن أن تمثّله في تاريخ الخلاص، بل يجب التعامل معها انطلاقًا من فهمها ذاتها دون أن يمنع ذلك الممارسة النقديّة انطلاقًا من معايير الحقيقة في المسيحيّة، ووفق قواعد «تمييز الأرواح»».

لكنّ بعض اللاهوتيّين أمثال هانس كونغ Hans Küng يطمحون في حوارهم مع الأديان الأخرى إلى بناء مشروع مشترك يهدف إلى صياغة قواعد لأخلاق شموليّة. فبعد أن نشر كونغ سنة ١٩٨٥ كتابًا يجمع عرضًا لعقائد البوذيّة والهندوسيّة والإسلام كما يفهمها أصحابها، أصدر سنة ١٩٩٠ كتابًا يحمل عنوان مشروع لأخلاق شموليّة، كمحاولة لإيجاد قاسم مشترك بين الأديان التي أصبحت موجودة جنبًا إلى جنب في المدن الكبرى الأوروبيّة والأمريكيّة. يطرح كونغ مشروعه هذا بديلًا من المحاولات السابقة التي طرحت قضيّة العلاقة بين الأديان الأخرى من زاوية المصداقيّة والحقيقة، حيث يدّعي كلّ دين امتلاكه الحقيقة. ويضيف كونغ أنّ مثل هذه التصوّرات والطروحات هي مصدر الحروب والنزاعات مفترضًا أنّ التعايش بين الأديان المختلفة يجب أن يقوم على أساس قانون مشترك يخضع له الجميع، ولكن مثل هذا القانون يتطلّب وجود قيم وقواعد ومعايير أخلاقيّة يقرّ بها الجميع. من هنا الضرورة لمشروع أخلاقيّ شموليّ يقوم على أسس أخلاقيّة مشتركة يقبل بها الجميع على الرغم من الاختلافات العقائديّة بين الأديان، بدون أن يلغي ذلك النواحي الأخلاقيّة الخاصّة بكلّ دين. هذا المشروع هو بمثابة محاولة لإبراز ما هو مشترك في سلوكيّات الناس وتصرّفاتهم على الرغم من التعدّديّة الدينيّة.

ولكنّ ردود الفعل إزاء هذا المشروع كانت متباينة، فقد لاقى استحسانًا وتأييدًا من بعضهم وقوبل بالاستهجان والتنديد من بعضهم الآخر، خاصّة من قبل الباحثين غير المسيحيّين إذ رأوا فيه مشروعًا أمبرياليًّا جديدًا يتستّر تحت قناع اللاهوت. ممّا يدلّ على أنّ الطريق لتحقيق مثل هذا المشروع ما يزال طويلًا ويحتاج إلى الكثير من الحوار والبحث والعمل.

بعد هذا العرض السريع لآراء بعض اللاهوتيّين الألمان نوجّه أنظارنا نحو اللاهوتيّين ذوي الثقافة الفرنسيّة لنتعرّف إلى مواقفهم ومساهمتهم في مجال لاهوت الأديان، وعلى رأس هؤلاء جاك دُوپوي Jacques Dupuis البلجيكيّ الذي يدرّس حاليًّا في الجامعة الغريغوريّة في روما، بعد أن عاش ثلاثين سنة في الهند اكتسب في أثنائها خبرة طويلة من الحوار مع الهندوسيّة كانت ثمرتها كتابه الشهير يسوع المسيح في لقائه الأديان.

محوريّة المسيح

تتميّز مقاربة دوپوي اللاهوتيّة باتّباع منهجيّة تطرح قضيّة التعدّديّة الدينيّة والعلاقة بالأديان الأخرى على أنّها قضيّة «كريستولوجيّة»، أي إنّه يعتبر سرّ المسيح مركز ومنطلق العلاقة بالآخر. ويلخّص موقفه هذا قائلًا: «إنّ الممارسة اللاهوتيّة الصحيحة لا تقيّم ظاهرة التعدّديّة الدينيّة من الخارج كمجرّد ظاهرة يرصدها تاريخ الأديان، بل تبحث عن دلالتها من منظار الإيمان، وإذا كان اللاهوتيّ مسيحيًّا فيجب أن يكون منطلقه الإيمان المسيحيّ. وهكذا توجد أنواع متعدّدة من لاهوت الأديان لكلّ واحدٍ بحسب إيمانه: فهنالك اللاهوت الهندوسيّ والبوذيّ... وهكذا دواليك. وأيّ لاهوت مسيحيّ للأديان يجب أن يكون منطلقه كريستولوجيّ، أي إنّ فهم الأديان الأخرى مفتاحه سرّ المسيح لكونه محور الإيمان المسيحيّ».

هذا المنطلق يفتح الباب لوجود لاهوت متعدّد للأديان يقرّ بالفرارق الموجودة بينها ويعكس تعدّديّة التقاليد الدينيّة لدى البشريّة بعكس اللاهوت الموحّد الذي يسعى إلى لاهوت شامل يجمع جميع الأديان

تحت مظلّة واحدة. ولكنّ الاعتراف بالخصوصيّة لا يعني التقوقع والانغلاق، لأنّ لاهوت الأديان غايته البحث عن أسس للشموليّة والعمل من أجلها. وعندما يطبّق دوپوي هذا المبدأ على لاهوت الأديان المسيحيّ يعتبر سرّ المسيح هو مبدأ الشموليّة، وليس الكنيسة كما هو شائع في اللاهوت التقليديّ. ويقول في هذا المجال: «إنّ لاهوت الأديان يجب أن يتعدّى الأفق الكنسيّ، لأنّ الكنيسة، باعتبارها خادمة لسرّ الخلاص وعاملة لبناء ملكوت الله في العالم، لا تتجاوز سرّ المسيح، لأنّ الشموليّة تكمن في المسيح، فهو يخصّ كلّ الأديان، بل بالحري كلّ الأديان خاصّته لأنّه حاضر وفاعل فيها بقدر ما هو حاضر وفاعل في كلّ البشر... هذه الشموليّة أساسها عناصر ثلاثة: كَشْفُ الله عن ذاته بوساطة كلمته، حضور المسيح القائم من بين الأموات المتجاوز الزمان والمكان، وفعل روح المسيح الشامل. هذه الشموليّة تستطيع تمثّل كلّ ما كشفه الله عن ذاته في تقاليد البشر الدينيّة. فهي قادرة على التنبّه لمعطيات تاريخ البشريّة الدينيّ والاغتناء من البديهيّات التي يزخر بها التراث الدينيّ الإنسانيّ. لأنّ هذه التقاليد الدينيّة المختلفة تتضمّن إيحاءات إلهيّة حقيقيّة بفعل حضور كلمة الله ومسيحه وروحه. كما يمكن التعرّف أيضًا، في كتب الأديان الأخرى، كلامًا إلهيًّا لا يخاطب فقط أتباع هذه الديانات بل المسيحيّين أنفسهم حتّى إذا كان يسوع المسيح كَلِمَتَه الأخيرة».

يؤكّد دُوپوي أنّ مفاهيم وخبرات وعناصر من أديان أخرى يمكنها إثراء لاهوت الأديان المسيحيّ، ولكن بفضل خبرته الطويلة مع الهندوسيّة يحذّر من مغبّة نقل هذه المفاهيم والخبرات دون رويّة، لأنّ لكلّ دين خصوصيّته التي لا تنطبق على دين آخر، ويشير في النهاية إلى أنّ كلّ لاهوت أديان يجب أن يكون «ظرفيًّا»، فبدل الانطلاق من اعتبارات عموميّة ومجرّدة، يجب الأخذ بعين الاعتبار الظروف الموضوعيّة والمسائل المحدّدة التي يطرحها كلّ لقاء وحوار مع الآخر. وإن كان هنالك من مبادئ أساسيّة عامّة فهي التعامل مع خصوصيّة كلّ تراث دينيّ ومعالجة كلّ ظرف وإطار ثقافيّ معيّن على حدة:

«صحيح أنّ كلّ الأديان لها مكانتها في مخطّط الله ومشروعه الخلاصيّ للبشريّة، ولكنّها لا تتساوى في المكانة والدلالة... بهذا المعنى لا يمكن الحديث عن لاهوت مسيحيّ واحد لكلّ الأديان، بل يجب أن يكون هنالك لاهوت متعدّد الوجوه يختصّ كلّ واحد منها بتراث دينيّ معيّن... إنّ القول بلاهوت واحد شامل كلّ الأديان ليس ضربًا من الخيال فقط ولكنّه يناقض كلّ لاهوت. لأنّه لا توجد رؤية موحّدة للكون، إنّما هنالك رؤى متعدّدة ومتنوّعة للواقع. لهذا لا يوجد لاهوت عامّ يحيط بكلّ الأديان، بل ثمّة تعدّديّة لاهوتيّة بحيث كلّ لاهوت يعالج المسائل المترتّبة عن اللقاء والحوار مع تراث دينيّ معيّن».

هذا اللاهوت الظرفيّ يجب أن تكون منهجيّته منهجيّة تأويليّة جدليّتها الخبرة الحاضرة المعاشة في ظروف معيّنة من جهة، والخبرة التأسيسيّة الخاصّة بكلّ تقليد دينيّ من جهة أخرى، أي تفسير تجربة الحاضر في ضوء النصوص المقدّسة وبالعكس. هذه الدائرة التأويليّة قوامها أبعاد ثلاثة: النصّ أو معطيات الإيمان، الظرف التاريخيّ، والقارئ المعاصر. وبتعبير آخر؛ الذاكرة المسيحيّة، الصيرورة التاريخيّة، والجماعة الكنسيّة أو الكنيسة المحلّيّة. أمّا خصائص هذا اللاهوت فيحدّدها دُوبِوي على النحو التالي: «إنّ منطلق العمليّة التأويليّة ليس حالة حياديّة، بل الإيمان المسيحيّ الذي محوره المسيح. ثمّ إنّ الظرف التاريخيّ لا يعني المعطيات الموضوعيّة التي يمكن استنتاجها من تاريخ الأديان، بل تلك التي مصدرها الواقع المعاش في اللقاءات بين المسيحيّين ومؤمنين ينتمون إلى دين آخر، حيث كلٌّ متأصّلٌ في إيمانه. فالحوار ليس بين دينين ولكن بين مؤمنين يمارسون إيمانهم ويعيشون منه».

تكشف الدائرة التأويليّة في إطار لاهوت الأديان عن التفاعل المتزايد بين معطيات الإيمان كمفتاح تفسيريّ للحوار المعاش مع الآخر، وهذه المنهجيّة تجمع بين الاستقراء والاستنتاج. إنّ براكسيس (Praxis) اللقاء والحوار بين مؤمنين ينتمون إلى أديان مختلفة يجب أن يكون نقطة الانطلاق لكلّ تفكير لاهوتيّ.

هذه المنهجيّة التأويليّة التي ينادي بها دُوپوي مستقاة من أعمال اللاهوتيّ الفرنسيّ كلود جِفْرِه Claude Geffré المعروف بطول باعه في مجال لاهوت الأديان. ونجد في كتابه المسيحيّة عرضةٌ للتأويل الخطوط العريضة لأفكاره حول لاهوت الأديان والتي لخّصها في مقالة نشرت العام ١٩٨٥في مجلّة إسلاموكرستيانا Islamo-Christiana (المختصّة بالحوار الإسلاميّ المسيحيّ) تحت عنوان «لاهوت الأديان غير المسيحيّة بعد مرور عشرين عامًا على المجمع الڤاتيكانيّ الثاني».

تعدّديّة سبل الخلاص

ينتقد جِفْرِه بعض توجّهات لاهوت الأديان لدى الكاثوليك، تنحو نحو التأكيد على الصفات التي تنفرد بها المسيحيّة عن بقيّة الأديان، ويرى في ذلك نوعًا من الاحتواء للآخر، «إذ يُنْسَب كلّ ما هو حقيقيّ وحسن في الإنسان أينما وجد إلى جوهر المسيحيّة، فيُضمّ إلى الكنيسة أشخاصٌ ينتمون إلى جماعات دينيّة محدّدة ولهم معتقداتهم الخاصّة، وبهذا لا تحترم غيريّة الآخر. صحيح أنّ الرغبة في الاستقبال شيء محمود، ولكنّها قد تترافق ونزعة احتوائيّة».

يتوجّه هذا النقد بصورة خاصّة إلى اللاهوتيّ الألمانيّ شلِتّ (Schlette) الذي يميّز بين تاريخين للخلاص: الأوّل عامّ يتدرج في سياق تاريخ البشريّة العامّ، والثاني خاصّ يتمثّل بوحي الله المجّانيّ بوساطة كلمته، وبعهده مع شعب خاصّ هو اليوم الكنيسة. ولكنّ تاريخ الخلاص العامّ لا يؤتي فعله الخلاصيّ ما لم يرفده بصورة أو بأخرى تاريخ الخلاص الخاصّ وما يكتسب بوساطته من نعم.

يقرّ جِفْرِه بمشروعيّة هذا التميز الذي له جذوره عند آباء الكنيسة، والذي يستند إلى الإيمان بوحدانيّة مخطّط الله الخلاصيّ الشامل كلّ البشر مهما تنوّعت انتماءاتهم الدينيّة. إنّ حضور الكلمة الذي يسمّيه المسيحيّون «المسيح» يشمل الجنس البشريّ بأجمعه. كما يمكن اعتبار عهد الله مع

نوح، السابق عهدَه مع موسى، رمزًا لعهده مع البشريّة جمعاء. ولكن جفره يتّهم شليتّ باستعمال تعابير غامضة حين يصف الأديان الأخرى بأنّها طريق عاديّ للخلاص، معتبرًا الكنيسة طريق خلاص فوق العادة. إنّ خطأ شليتّ كما يقول جفره هو الانتقال من مستوى الأمر الواقع إلى المستوى القانونيّ، فممّا لا شكّ فيه أنّ الأديان يمكنها أن تكون وسيلة خلاص لذوي الإرادة الحسنة، ولكن هذا لا يسمح بوصف هذه الأديان بأنّها طريق خلاص عاديّ لأنّ ذلك يناقض وحدانيّة وساطة المسيح، والأصحّ وصفها بأنّها طريق للنعمة والخلاص. ولكن كيف يرى جفره قضيّة تعدّد «تاريخ الخلاص» في ضوء تأكيده على وحدانيّة الوسيط؟ يقول:

«إنّ اتّجاهي هو تبنّي لاهوت لتاريخ الخلاص أساسه التغاير. إنّني أسعى للتوفيق بين مبدأين أساسيّين لا ينفصلان: التأكيد على إرادة الله الخلاصيّة الشاملة من جهة، واختيار الله شعبًا خاصًّا بدءًا بإسرائيل، ثمّ الكنيسة شعب الله الجديد الذي كوّنه يسوع المسيح كوسيط أوحد من جهة أخرى». وللتوصّل إلى ذلك يؤكّد على تعدّد السبل الخلاصيّة داخل تاريخ الخلاص الواحد، وعلى شموليّة المسيح كشموليّة متجسّدة. ويوضح جفره فكرته عن التغاير في تاريخ الخلاص بالمبادئ التالية:

١ - التعدّديّة الخلاصيّة: يمكننا أن نميّز، انطلاقًا من روح لاهوت الكلمة لدى آباء الكنيسة، «تاريخًا مقدّسًا» يكتبه الله خارج الكنيسة في التقاليد الدينيّة الأخرى، أي يجب أن لا تبقى أسرى مفهوم تسلسليّ لتاريخ الخلاص، فالأقدم ليس إبراهيم ولا موسى ولا حتّى آدم ولكن المسيح آدم الجديد، كما أنّ اختيار إبراهيم والعهد مع موسى لا يُلغي شيئًا من عهد الله مع نوح وشموليّته. فإنّنا نجد داخل تاريخ إسرائيل المقدّس استذكارًا متجدّدًا للعهود المختلفة. هنالك جدليّة بين الشموليّة والخصوصيّة، فإذا كانت صفة الشموليّة تتجلّى بوصيّة المحبّة، فإنّ الخصوصيّة تظهر في العهد. ويقترح جفره بالإضافة إلى ذلك مفهومًا جديدًا هو التغاير في الوحي. إنّ تدبير الكلمة الشامل البشريّة جمعاء يقابله تاريخ لروح الله الذي لا ينفصل عن روح يسوع

المسيح القائم من بين الأموات، والذي يتجاوز تاريخ إسرائيل وتاريخ الكنيسة وإطار الأديان الكبرى، لأنّه يسمح لكلّ إنسان أن تكون له تجربته الروحيّة في وحدة الوحي النابع من الله. إنّ جفره يتبنّى مبدأ التغاير في الوحي ليستبعد فكرة تعدّديّة الوحي، إذ يبقى الوحي الذي تمّ في يسوع المسيح التعبير الوحيد والنهائيّ للوحي بصورة عامّة.

٢- المسيح الشموليّة المتجسّدة: إنّ الشموليّة التي يدعو إليها جفره ليست شموليّة مجرّدة تسقط في النهاية في نسبيّة حائرة، بل إنّها تأخذ عنده وجهًا محدّدًا ترتسم ملامحه في وجه يسوع المسيح: «إنّ يسوع هو الوسيط الوحيد بين الله والبشر، وإذا أخذنا نتائج سرّ التجسّد بجدّيّة، نجد أنّه في يسوع المسيح يتحقّق وعد الله لكلّ مخلوق، أي إعطاؤه ذاته كليًّا، كما يتحقّق فيه أيضًا توق الإنسان العميق إلى تسليم ذاته لله. ففي حدث التجسّد يتحقّق داخل التاريخ البشريّ عهد الله الأبديّ مع الإنسان. إنّ المسيح باعتباره كلمة الله يحرّر شخص يسوع الناصريّ من خصوصيّة الانتماء إلى مجموعة محدّدة، وبهذا المعنى فإنّه يخصّ جميع البشر. إنّنا نرى فيه تحقّق الشموليّة المتجسّدة، التي تتوق إليها كلّ حقيقة. وبناءً عليه فإنّ رسالة الكنيسة هي العمل على تحقيق شموليّة المسيح المتجسّدة هذه».

٣- الكنيسة شاهدة للملكوت الآتي: «إنّ غاية الكنيسة ليست العمل من أجل ذاتها بل أن تكون خادمة للملكوت الآتي. إنّ الله لا يُحدّ لا في المسيحيّة التاريخيّة ولا في بنية الكنيسة الأرضيّة، والكنائس لا تحتكر علامات الملكوت، إذ يفيض الله نعمته على كلّ البشر بالوسائل التي لا يعرفها إلّا هو وحده. ويبقى الله أكبر من كلّ العلامات التاريخيّة التي عبّر من خلالها عن حضوره. لذلك نحن مدعوّون لتجاوز المحوريّة الكنسيّة الضيّقة التي تعيقنا عن تلمّس حضور الله خارج حدود الكنيسة المرئيّة». وينهي جفره مقالته مستندًا إلى مفهوم الله كثالوث لتوضيح مفهومه الكريستولوجيّ والكنسيّ:

«فإن كنت لا أخشى الحديث عن تاريخ خلاص متغاير فلأنّني أجد أسسه في المفهوم المسيحيّ لله، لأنّ الوحدانيّة المسيحيّة وفق منطق الثالوث تؤسّس التغاير في الوحدة. هذا ما يميّز صورة الله كما كشفها يسوع المسيح عن مفهوم الألوهة في الفلسفة والأديان الأخرى. إنّ سرّ التواصل يكمن في الله لأنّه، وفق المفهوم المسيحيّ، توق للخروج من الاكتفاء الذاتيّ وحثّ على التغاير».

بعد هذا العرض السريع لمختلف التيّارات التي يزخر بها لاهوت الأديان في المسيحيّة، يتبيّن لنا أنّ المنطلق اللاهوتيّ للعلاقة مع الأديان الأخرى لم يعد محوره الانتماء الكنسيّ، بل سرّ المسيح كمصدر للخلاص يتجاوز بحضوره حدود الكنيسة، ويفعل في البشريّة جمعاء. ففي المسيح يكمن سرّ لقاء البشريّة والله الذي يحقّق الخلاصُ لكلّ إنسان. إنّ المسيح هو الطريق الوحيد الذي يعطي من خلاله اللهُ ذاته للبشر، والمؤمنون من الديانات الأخرى يمكنهم تحقيق هذا اللقاء بصورة ضمنيّة بدون أن يتعرّفوا في إنسانيّته إلى سرّ المخلّص، أي هناك فارق بين اختبار الخلاص الضمنيّ في سرّ المسيح، والتعرّف إلى هذا السرّ في يسوع الناصريّ.

الخلاص بلقاء المسيح

إنّ المسيح هو السرّ الأصليّ، والكنيسة تُنسَب إليه كما ينسب الدال إلى المدلول إليه. إنّه السرّ الجوهريّ الذي منه تُشتَقّ الكنيسة وتجد فيه مصدر وجودها ومعناه. إنّها السرّ المرئيّ لسرّ المسيح في العصور والمناطق المختلفة. لذلك تُعتبر سرّ الخلاص الشموليّ والوسيلة العامّة للخلاص. . ولكنّ الإقرار بكون الكنيسة علامة خلاص ووسيلة خلاص لسرّ المسيح لا يمنع أن يكون للآخرين علامات خلاص أخرى. إنّ السرّ العامّ لا ينفي السرّ الخاصّ وهذا السرّ يتحقّق في الكنيسة بصورة كاملة بينما يكون خارج الكنيسة غير كامل، لأنّه لا يصل إلى الكمال إلّا عبر وساطة الكنيسة. إنّ سرّ المسيح يتجلّى بصورة جليّة في حياة الكنيسة،

ولكنّه قد يجد علامات له في الأديان الأخرى. ولكن هذا لا يعني أنّ المسيحيّين لهم امتياز خاصّ في الخلاص، ذلك لأنّ الخلاص متعلّق بمدى استجابة كلّ شخص لسرّ المسيح الحاضر والفاعل فيه، أكان ذلك بصورة واعية أو لا واعية. وخلاصة القول إنّ المسيحيّين لا يتمتّعون بوضع مميّز في مرتبة الخلاص، ولكن تقع عليهم مسؤوليّة خاصّة وهي الشهادة الحيّة لسرّ الخلاص الذي ظهر لهم بصورة علنيّة بيسوع المسيح.

لكي ندرك كيف يمكن أن تكون الأديان الأخرى وسيلة خلاص يجب الانطلاق من سرّ المسيح ذاته، فالمسيح هو الله في حضوره وعلاقته الشخصيّة بالبشر. لذلك كلّ اختبار حقيقيّ لله عند المسيحيّين وغير المسيحيّين هو لقاء الله بالإنسان في يسوع المسيح.

إنّ الله حاضر لمؤمني الأديان الأخرى في ممارسة ديانتهم وإيمانهم، والنعمة يمكن أن تسلك سبلًا عديدة ليصل فعلها إلى الإنسان. وهكذا يبقى سرّ الخلاص واحد، هو سرّ المسيح، ولكن هذا السرّ هو بمتناول جميع البشر حتّى خارج حدود المسيحيّة. إنّ الوحي المسيحيّ يكشف عمّا هو خفيّ في الأديان الأخرى، لكن الجديد في المسيحيّة هو هذا الكشف الكلّي الذي يتجلّى في سرّ المسيح وهو بذلك قمّة الوساطة المرئيّة الحاضرة في العالم.

. إنّ الله يلتقي البشر خارج المسيحيّة في المسيح ولكنّ وجهه الإنسانيّ يبقى مجهولًا، أمّا في المسيحيّة فإنّ لقاء الله والبشر يتمّ في وجه يسوع الإنسانيّ، الذي يعكس صورة الآب. فإذا كان الله في كلّ ديانة يقترب من الإنسان، فإنّ هذا الاقتراب يتحقّق في المسيحيّة في إنسانيّة يسوع المسيح.

إنّ نظريّة حضور سرّ المسيح في كافّة الأديان تستطيع وحدها أن توفّق بين مبدأين في الإيمان المسيحيّ يبدوان للوهلة الأولى متناقضين: إرادة الله الخلاصيّة الشاملة كلّ البشر من جهة، ومحوريّة سرّ المسيح في تحقيق هذا الخلاص بصورة حسّيّة من جهة أخرى.

لكن مهما يكن من أمر حضور المسيح الخفيّ في التقاليد الأخرى، تبقى للخبرة المسيحيّة، أي خبرة المسيح في قلب الكنيسة، طابعها الخاصّ المميّز. إنّ العبور من تدبير خلاصيّ خارج المسيحيّة إلى تدبير خلاصيّ بداخلها يتطلّب المرور بسرّ الفصح، الذي هو موت وقيامة على مثال المسيح. صحيح أنّ الموت ليس غاية بحدّ ذاته ولكن لا قيامة من دونه.

إنّ حضور سرّ المسيح في الأديان الأخرى يتطلّب من المسيحيّ انفتاحًا واستقبالًا للآخر بروح التميّز، ولقاء الآخر والحوار معه يساعد المسيحيّ على تعميق سرّ المسيح على الرغم من نيله الوحي الحقيقيّ، لأنّ الحقيقة ليست شيئًا للامتلاك بل شخص تُمكّنُه من امتلاكِكَ إذ الآخرون تتملّكهم أيضًا ذاتُ الحقيقة. إنّ حضور المسيح في كلّ إنسان يتعلّق بمدى تجاوبه مع فعل الله في حياته، وهذا الحضور هو حقيقة روحيّة موجودة على درجات مختلفة عبر وسائل مختلفة، ولكن هذه الحقيقة تتجاوزها كلّها.

وإذ أصبح سرّ المسيح منطلق لاهوت الأديان، فيجب أن لا نُغفِلَ دور الروح القدس الذي يتجاوز تأثيره حدود الكنيسة. إنّ الروح يعمل في المؤمنين من الأديان الأخرى، وتأثيره فاعل فيهم بشكل سرّيّ في حياتهم الدينيّة. ويقرّ المجمع الفاتيكانيّ بهذا التأثير. إنّ حضور الروح القدس الفعّال والشامل يسبق تجسّد المسيح وهو مستمرّ وفاعل بعده وخارج الكنيسة. إنّه حاضر طوال تاريخ التدبير الخلاصيّ. فكلّ اختبار روحيّ حقيقيّ هو اختبار بالروح. «وإذا كانت دعوة الإنسان الأخيرة هي حقًّا واحدة للجميع، أي أنّها دعوة إلهيّة، علينا إذًا أن نتمسّك بأنّ الروح القدس يقدّم للجميع الإمكانيّة للاشتراك في سرّ الفصح بطريقة يعرفها الله وحده» (الكنيسة في عالم اليوم ٢٢/٥).

إنّ المسيح يبقى القِبْلة التي إليها تتّجه الأنظار لتقيّم الخبرات والقيم الدينيّة سلبًا أو إيجابًا، لأنّه نبع المصالحة الشاملة، وفي ضوئه يتجلّى ما

يكتنف قلب الإنسان من ظلمات وما يعمل فيه من خير لأنّه الحقيقة المحرِّرة. ولكنّ بعض اللاهوتيّين يشيرون إلى حقيقة تأخّر مجيء المسيح قياسًا مع التاريخ البشريّ، وهذا ما يؤكّد أنّ التدبير الخلاصيّ لا ينحصر فقط في الانتماء أو اللقاء المرئيّ والمحسوس مع المسيح، لأنّ الذين سبقوا المسيح لا يمكن حرمانهم من الخلاص، فنعمة المسيح المخلِّص الفادي لا يمكن حصرها داخل الزمان والمكان، وهذا ينطبق حتّى على الذين عاشوا بعد مجيئه ولم تصلهم رسالة الخلاص لسبب أو لآخر. إنّ مخطّط الله الخلاصيّ لا يستثني أيّة مرحلة زمنيّة من التاريخ البشريّ، والمسيح يُعتبر نهاية كلّ الجهود الدينيّة لأنّه هو أصلها ولأنّ به خلق كلّ شيء وصورته مطبوعة في كلّ إنسان، ولهذا يعتبر بعض اللاهوتيّين أنّ الأديان الأخرى تمثّل هذا البحث المستمرّ عن الله المفروس في كلّ إنسان بصفته مخلوقًا على صورته ومثاله. وهكذا يرى الكثيرون أنّ الأديان هي ثمرة النور الإلهيّ المستمدّ من الكلمة الذي ينير كلّ إنسان. هذا التميز دون الفصل بين الكلمة الخالق المنوّر والمسيح الفادي يجعل سبل الحوار مفتوحة بين الإيمان المسيحيّ والأديان الأخرى، ولكنّ الحوار لا يلغي مسؤوليّة المسيحيّ بالشهادة لإيمانه وإعلان سرّ المسيح الذي تجسّد ليخلّص كلّ إنسان، فالشهادة والحوار لا ينفصلان.

آفاق مستقبليّة للحوار

إنّ جدليّة العامّ والخاصّ التي تخيُّم على الكتاب المقدّس، لم تُستثمَر بما فيه الكفاية من قبل الباحثين، وهي كفيلة بإعطاء لاهوت الأديان دفعة جديدة نحو الأمام، وفتح آفاق مستقبليّة لتطوير هذا اللاهوت. إنّ البعد الشموليّ حاضر أبدًا في طيّات الكتاب المقدّس، وهو كفيل بمنع احتكار سرّ الله حتّى من قبل مختاريه، وكمثال على ذلك نذكر عهد الله مع نوح (تك ٨/ ٢٠-٩/ ١٧) الذي يعتبر أقدم العهود، ممّا يدلّ على إرادة الله الخلاصيّة لكافّة الشعوب. هذه الإرادة تظهر بصورة جليّة في العهد الجديد الذي يوسّع تاريخ الخلاص ليشمل كلّ الأمم: «الحقّ أقول لكم: لم أجد

مثل هذا الإيمان في أحد من إسرائيل. أقول لكم: سوف يأتي أناس كثيرون من المشرق والمغرب فيجالسون إبراهيم وإسحق ويعقوب على المائدة في ملكوت السموات» (متّى ٨/ ١٠-١١). أمّا رسائل القدّيس بولس فإنّها تؤسّس الشموليّة على شخص المسيح بالذات، والكريستولوجيا التي نجدها في معظم رسائله مبنيّة على المسيح الذي يحقّق شموليّة الخليقة لأنّه رأس الخليقة وبه قوام كلّ شيء (قول ١/ ١٥-٢٠)، وروحه يملأ القلوب حتّى وإن كان بصورة خفيّة. ولنا في خطبة بولس في الأوبوباغس (أعمال ١٧/ ٢٢-٣١) أنموذجًا على ذلك، حيث يبرز القيم الدينيّة الإيجابيّة عند أهل أثِنا الوثنيّين، والتي تؤهّلهم للتعرّف على الخلاص بيسوع المسيح. كما تلخّص مقدّمة إنجيل القدّيس يوحنّا هذه الشموليّة إذ ترسم الخطوط العريضة في تاريخ البشريّة بدءًا بالخليقة وانتهاءً بالتجسّد. فحضور الكلمة يرافق هذه المسيرة منذ البدء: به خُلق كلّ شيء وبدونه ما كان شيء ممّا كان، فهو نبع الحياة لكلّ موجود، فيه كانت الحياة والنور لكلّ إنسان. إنّه حضور الكلمة الفعّال قبل أن يصير جسدًا ويحلّ فيما بيننا. هذه المعطيات تسمح بتطوير لاهوت للأديان يحقّق صفة الشموليّة بدون أن يتجاهل سرّ التجسّد. والعودة إلى الكتاب المقدّس كفيلة بإعطاء لاهوت الأديان نفسًا جديدًا وأسسًا قويّة، فهي تسمح ببلورة خاصّيّة الإيمان المسيحيّ من جهة والانفتاح على الأديان الأخرى من جهة أخرى، وهكذا نجد أنّ جدليّة الخاصّ والعامّ متأصّلة في الكتاب المقدّس، وعندما يختار الله شعبًا خاصًّا فهذا لا يعود إلى فضل فيهم أو للتمتّع بامتياز يستحقّونه، بل لتكليفهم مسؤوليّة تجاه الآخرين يُسألون عنها: «بك يتبارك جميع عشائر الأرض» (تك ١٢/ ٣)، هذه هي رسالة إبراهيم أوّل المختارين ليكون مصدر بركة للبشريّة جمعاء، كما أنّ اختيار المسيح تلاميذه إنّما غايته إيصال البشرى إلى العالم أجمع.

وفي الختام لا بدّ من تحديد بعض القواعد لأجل التوصّل إلى حوار حقيقيّ:

- أوّلًا، يجب أن يكون الحوار صادقًا، غير منشغل بالمجاملات التي

تطمس وجه الحقيقة. فالحقيقة لا تناقض الأخوّة الصادقة بل بالعكس هي شرط لها.

- ثانيًا، يجب الأخذ بعين الاعتبار الإطار الثقافيّ الذي يدور فيه الحوار فبعض المفاهيم لا تشير إلى المعنى ذاته عند الانتقال من ثقافة إلى أخرى. من هنا ضرورة قبول كلّ طرف جدليّة الآخر وهذا يتطلّب الانفتاح والإصغاء والصبر، أي قبول شهادة الآخر عن نفسه، إذ كلّ شهادة حقيقيّة متأصّلةٌ في خبرة روحيّة خاصّة ونابعة، لأنّ كلّ اختبار حقيقيّ يحثّ الآخر على تطوير اختياره الخاصّ وتعميقه.
- ثالثًا، إنّ غاية الحوار ليست إقناع الآخر بحقيقة معتقدي وليست الإصغاء المهذّب لما يقوله الآخر، ولكن أن يصبح إيمان الآخر مدعاة للتفكير في إيماني، كما يحثّ إيماني بالمقابل الآخر على التفكير في إيمانه. فكلّ حوار لا يقود إلى التفكير في إيماني ليس حوارًا حقيقيًا. بهذا يصبح الحوار مع الآخر مسيرة مشتركة تقود كلّ طرف إلى اكتشاف سرّ الله الذي يتجاوز كلّ حدود وخبرة ودين.

المراجع

لاهوت الأديان... أين وصل اليوم؟ للأب كريستيان تُرول (TROLL) اليسوعيّ (مخطوط).

موقع الفكر اللاهوتيّ من الأديان غير المسيحيّة، للأب أوغسطين دوبره لاتور اليسوعيّ (مخطوط).

وثائق المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وبالأخصّ:
- «دستور رعويّ حول الكنيسة في عالم اليوم».
- «تصريح حول علاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحيّة».

Jacques Dupuis, *Jésus-Christ à la rencontre des religions,* Desclée, Paris, 1989.

Claude Geffré, *Le christianisme au risque de l'interprétation,* Cerf, Paris, 1983.

H.R. Schlette, *Pour une théologie des religions,* Cerf, Paris, 1971.